المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والقانونية | المجلد **8** / العـــدد: **1** (أفريل **2023**)، ص 04- 17

دور السلطان نور الدين محمود في التصدي للحملة الصليبية الثانية 543هـ/1148م.

The role of Sultan Nur al-Din Mahoud in addressing the second crusade.

زعبي عبد الرزاق*
جامعة 8ماي 1945قالمة (الجزائر)
Zaabi.abderrazak@univ-guelma.dz

تاريخ الاستلام: 2023/03/26 تاريخ القبول: 2023/04/11 تاريخ النشر: 2023/04/30

ملخص:

تعد الحروب الصليبية واحدة من اخطر واشهر الحروب التي قادها الأوروبيين ضد العالم الإسلامي، ودامت حوالي قرنين، وبرز من الجانب الإسلامي والصليبي عديد الاسر والقادة، فمن الجانب الإسلامي كان للأسرة الزنكية بالغ الأثر في هذه الحروب واخذت مهمة الدفاع عن الكيان الإسلامي ومقدساته، وكان لابد من القيام بمهمة التصدي لهذا الغزو والاحتلال لأراضي المسلمين وذلك من خلال بدل جهود مضنية لتوحيد الجبهة الإسلامية تمهيدا للتصدي للصليبيين، ولهذا تأتي هذه الدراسة للوقوف على الجهود التي بدلها نور الدين محمود للتصدي للحملة الصليبية الثانية على العالم الإسلامي ابان فترة الحروب الصليبية، وتأتي أهميتها انها تلقي الضوء على فترة تاريخية تعد من اخطر مراحل التاريخ الإسلامي ، وسقوط أولى الامارات الصليبية .

كلمات مفتاحية: الحملة الصليبية.، نورالدين محمود.، بلاد الشام.، الموصل.، الرها.

Abstract:

The Crusades are considered one of the most dangerous and famous wars that Europeans led against the Islamic world, and they lasted for about two centuries, and many families and leaders emerged from the Islamic and Crusader side, especially from the Islamic side. Before undertaking the task of confronting this invasion and occupation of Muslim lands, strenuous efforts must be made to unify the Islamic front in preparation for carrying out this task. Therefore, this study comes to stand on the efforts made by Nur al-Din Mahmoud to confront the second crusade against the Islamic world during the period of the Crusades.

Keywords:

Nur-al Din. mosul. The Crusades. Levent.

---

* زعبي عبد الرزاق

1. مقدمة:

معلوم أنه لسقوط إمارة الرّها الصليبية (539هـ / 1144م)، في عهد الأتابك عماد الدين زنكي، دور كبير في إثارة الغرب المسيحي للقيام بحملة صليبية على بلاد الشام والجزيرة، وهي التي كانت من اجل إنقاذ الكيان الصليبي من التداعي، خاصة بعد سقوط أولى إماراتهم، وبروز جبهة إسلامية قوية في كل من حلب والموصل بقيادة نور الدين محمود، الذي سوف يقف لأطماعهم بالمرصاد، ويرجع الصليبيين خائبين مهزومين.

2. الرها أولى الامارات الصليبية تأسيسا وسقوطا:

1.2 أهمية الرها الصليبية:

إن الموقع الذي أسست عليه امارة الرّها الافرنجية كان يتمتع باستراتيجية عسكرية واقتصادية نتيجة لتحكمه بطرق المواصلات، إذ استطاعت بذلك أن تقطع الاتصالات الإسلامية بين حلب والموصل من جهة، وبين بغداد وسلاجقة الشام من آسيا الصغرى من جهة أخرى، كما أن المسلمين فقدوا جزءا خصبا من أراضيهم باستلاء الفرنج عليها[1]

ذلك أن إمارة الرها الصليبية لم تكن تسيطر على أهم الطرق التي تصل بين الجزيرة والساحل فحسب، بل كانت أيضا أقرب من أيه امارة صليبية أخرى إلى عاصمة الخلافة العباسية بغداد، وبذلك تحملت الرها شرقي الفرات، وتل باشر غربيه مشقة عبئ الدفاع عن الجبهة الشرقية للوجود الصليبي في الشرق الأدنى، هذا فضلا عن الصدمات التي تعرضت لها من جانب التركمان والاتراك من جهة الشمال، وخاصة بني أرتق الذين حكموا ماردين وحصن كيفا ونصيبين وديار بكر[2] ،ومنذ وصول الحملة الصليبية الأولى الى المنطقة، رغب بلدوين البويوني في اقامة مملكة خاصة به في الشرق، ووجد الصليبيون في الأرمن سكان المدينة حلفاء طبيعيين لهم ضد السلاجقة وضد الدولة البيزنطية التي كانت تأكد على أحقيتها في المنطقة والمدينة، وأمر الإمبراطور ألكسيوس أمراء الحملة الأولى بإرجاعها له تحت حلف يمنين الولاء، وهذا ما جعل الأرمن يقدمون الكثير من الخدمات للجيوش الصليبية المتهالكة بعد رحلتها الطويلة، ورحب الأرمن ببلدوين الصليبي وظهر لهم على أنه المنقذ، خاصة أنها كانت تعتبر بمثابة جزيرة مسيحية وسط محيط من الاتراك المسلمين، وصل بلدوين الى الرها في (فيفري1098م-492هـ)[3]، استقبل استقبالا رائعا كما صوره لنا المؤرخون، وهكذا أصبحت الرها في حوزه الفرنج وهي أولى الامارات التي أسسها الصليبيون في الشرق[4].

والواقع أنه إذا كنا قد بينا من قبل تأسيس إمارة الرها بالنسبة للبناء الصليبي في الشرق، فإن بعض الباحثين يرون أن تأسيس إمارة الرها يعتبر سابقة خطيرة، لأنه شجع بقية أمراء الحملة الصليبية الأولى على أن يحذو حذو بلدوين في تكوين امارة لأنفسهم مما يهدد وحدة الكيان الصليبي في الشرق[5].

ومما يوضح ذلك مكانة الرها، الحملة التي قام بها كربوقا صاحب الموصل سنة (491هـ/1098م) لنجدة للمسلمين بانطاكية قد تعطلت بعض الوقت حول الرها في محاولة لانتزاعها من بلدوين الاول[6] ، واكتسبت

الرها أهمية بما تهيأ لها من حكام اتصفوا بالقوة والشجاعة استطاعت الصمود في وجه المقاومة الاسلامية[7] ،ولم تقتصر أهمية الرها على الجانب الصليبي بل كانت في نظر المسلمين من اهم المواقع التي يجب السيطرة عليها، فقد ذكر ابن الأثير مكانتها في بلاد الجزيرة مما جعل القوى الاسلامية سواء في العراق أو الشام أو الجزيرة ترغب في السيطرة عليها[8] ،كان المسلمون في الشام متفرقين تكاد كل مدينة أن تكون مستقلة، وتعقدت الامور بالتواجد الصليبي وتأسيسه للإمارات الصليبية في بلاد الشام.

2.2 سقوط الرها:

وبعد حوالي ثلاثون سنة من التواجد الصليبي، برز قائد مسلم هو عماد الدين زنكي، إذ لم يمارس في بداية حكمه للموصل أي نشاط عسكري ضد الصليبيين قبل أن يثبت أقدامه في امارته الجديدة، ويعزز مكانتها الاقتصادية والعسكرية ويوحد ما أمكنه من الامارات الصغيرة المتناثرة حولها، لتأمين خطوط تحركاته في الجزيرة وبلاد الشام الى الحد الذي يمكنه من التصدي لهم، وكان ذلك في عام 521هـ/1127م[9].

عقد زنكي مع أمير الرها جوسلين الثاني هدنة، وكان هدفه من ذلك التفرغ لضم حلب الى أملاكه واتخاذها نقطة انطلاق له في بلاد الشام، ونجح في تحقيق هذا الهدف، وانطلق بعد ذلك في اكتساح ما كان يقف في طريقه من حصون مستقلة وامارات محلية منتهزا فرصة الهدنة[10].

أدخل وفي عام (529هـ/1135م) أتيحت له الفرصة لتحقيق انتصارات جديدة في بلاد الشام، حيث قام بمهاجمة عدد من المواقع الصليبية المحيطة بحلب، والتي كانت تهددها باستمرار فضلا عن كونها الخط الدفاعي الذي يحمي أنطاكية من هجمات المسلمين، وتمكن من الاستيلاء على خمسة منها الاثارب، زردنا تل أغدي معرة النعمان وكفر طاب، وقد أدت هذه الانتصارات التي حققها زنكي ضد الصليبيين الى تنبيهم الى تزايد خطره على ممتلكاتهم في الشام، والى ضرورة توجيه ضربة حاسمة إليه، وراحوا يتحينون الفرصة المواتية لانزال هذه الضربة.

وفي اثناء هذه الفترة تحالف الصليبين في الشام مع البيزنطيين ضد عماد الدين زنكي، وقام الامبراطور البيزنطي يوحنا كومنين بمحاولة غزو بلاد الشام، وخاصة أنه وعد باسترجاع أملاك بيزنطة من السلاجقة وطردهم هم والارمن من أراضيها السابقة واجبار الصليبيين على الاعتراف بسيادته على أنطاكية[11].

هنا محتوى العنوان لكن الحملة فشلت بعديد الاسباب منها عدم قيام الصليبيين بواجباتهم العسكرية وانصرافهم عن مساندة الامبراطور، والمنافسة بين الأمراء الصليبيين، وهجوم سلاجقة الروم على أراضي بيزنطة، وخطط عماد الدين العسكرية الذكية خاصة الحرب النفسية.

وهنا رجع الامبراطور بجيشه يجر أذيال الهزيمة، لأنه خرج من أجل العمل على ضم انطاكية الى املاك بيزنطة، لا من أجل فقدان بعض أملاك الامبراطورية[12].

في عام(538هـ/1143م)، أتيح لزنكي استغلال مركزه القوي في دياربكر والقيام بفتح عدد من المواقع والحصون الصليبية العائدة لأمارة الرها الصليبية، وكان هدفه من وراء ذلك قطع الاتصال بين أرسلان الأرتقي، أمير حصن كيفا وبين جوسلين أمير الرها بسبب تحالفهم ضده، وبذلك تمهد الطريق أمامه لانزال ضربته المباشرة بالرها نفسها وتحقيق حلمه الذي راود خاله عبر سنين صراعه الطويل ضد الصليبيين[13] "فكان ذكر هذه المدينة حسب ابن القلانسي عند عماد الدين لا يبرح ذكرها حائلا في خلده، وسره وأمرها مائلا في خاطره وقلبه"[14]، وسعى لاخراج جوسلين الثاني وقواته من المدينة، مدركا في الوقت نفسه أنه لن يستطيع فتحها ما داموا فيها، فاتجه الى آمد التابعة للاراتقة، وأظهر أنه يعتزم حصارها، وبث عيونه في منطقة الرها لترصد تحركات أميرها .[15]

وفعلا نجحت خطته، خرج جوسلين من المدينة، ووصلتها قوات عماد الدين زنكي بجيش كثيف في شهر جمادى الآخرة عام (539هـ، آخر تشرين الثاني من عام 1144م) وحاصرها.

وازداد عدد أفراد جيش عماد الدين زنكي بما انظم إليه من المتطوعة من شمالي العراق، واشتد حصارها، وأغلق زنكي كل المداخل المؤدية إليها، وهنا عانى المحاصرون من النقص الشديد في المؤنة والتجهيزات، وفي 26 جمادى الآخرة 23 كانون الأول إنهار جانب من السور بفعل الحصار الشديد والمتواصل لمدة أربعة أسابيع، فاندفع المسلمون الى داخل المدينة كالسيل، وهلك الآلاف من سكانها ودخل عماد الدين زنكي المدينة راكبا في موكب النصر فأصدر أوامره الى جنده بإيقاف أعمال القتل والأسر وأبقى على حياة الوطنيين من أرمن وسريان وروم وأعاد لهم ما خسروه من سبي وغنائم، بينما تم تطويق اللاتين، وتقرر قتلهم وبيع نسائهم رقيقا[16].

رأى عماد زنكي بعد فتح الرها أن ذلك البلد " لا يجوز في السياسة تخريب مثله" لذلك لم يتبع سياسة العنف ضد أهلها بل لجأ إلى سياسة حكيمة ليضمن بقاءها في قبضته، لم يتعرض الى كنائس النصارى الشرقيين من أرمن ويعاقبة ومنع جنوده من الاعتداء على سكانها، وسمح بعودة سكانها الفارين من اضطهاد الكاثوليك اللاتين سابقا، وهذا ما دل على بعد نظره من أجل ايجاد دعامة محلية تؤيده واستند اليها في حكم الرها، وهكذا عادت الرها الى ما قبل استيلاء الصليبين عليها، ذي طابع نصراني معظم سكانه من النصارى الشرقيين، ويدين بالتبعية للمسلمين[17].

وبموته ليلة (ربيع الآخر 541هـ/4ديسمبر 1146م)، اختتمت صفحة أعمال زنكي، وانتهت أولى المحاولات الاسلامية في تكوين جبهة قوية لمقاومة الصليبيين وطردهم من بلاد الشام والعراق [18]،والتي حقيقة أثمرت خيرا للديار الاسلامية وكانت بذرة التي غرست لمن جاء بعده لسقيها، وبناء قوة إسلامية لطرد الصليبيين، من باقي المشرق الاسلامي.

3. صدى سقوط الرها شرقا وغربا:

كان لسقوط الرها صداه الواسع على المسيحيين والمسلمين وكانت ردود الفعل كالتالي:

3-1 رد فعل من جانب المسلمين: كان فتح الرها من أهم الأعمال التي جلبت السرور الى نفوس المسلمين، فقد حمل إليهم أملا جديدا، في اسقاط بقية الصرح الصليبي في الشرق، وأزال عنهم كربا شديدا، وعبر عنه المؤرخون المسلمون المعاصرون بأنه:" طاب في الآفاق ذكره، وطاب بها نشره"[19].

ومن ناحية أخرى فقد رفع ذلك الفتح من مكانة عماد الدين الزنكي لدى المسلمين، فمجده الشعراء وخلع عليه الخليفة العباسي المقتضى لأمر الله العباس وزاد في ألقابه كزين الاسلام، الملك المنصور، نصير أمير المؤمنين[20].

أتاح سقوط امارة الرها تأمين طريق المواصلات الاسلامية بين الموصل وحلب ورفع الحاجز الصليبي الذي كان قائما بين المناطق الاسلامية[21].

3-2. رد فعل المسيحيين في الشرق: ترى هل يمر على المسيحيين انتصار زنكي دون أن تكون له ذيول؟ وهل لهم أن يطمئنوا الى مجريات الأمور على ذلك المنوال؟

الواقع أن هناك جماعات من أهلها –الرها– ساءتها النكبة الملمة ببلدهم فأخذت تتحين الفرصة للتخلص من المسلمين، يدفعها الى ذلك عامل الدين من جهة وعامل السياسة من جهة اخرى.[22] أما من الناحية الدينية فتمثل لنا في غضب أهلها من استيلاء المسلمين على موجودات الكنائس، وسياسيا رغبوا في استرجاع الرها لأملاك الامارات الفرنجية في الشرق بحيث أن سكانها قاموا بتدبير ثورة ضد المسلمين واستغلوا فرصة انشغال زنكي في محاصرة دمشق، وحاولوا اخراجهم منها غير أنهم انكشفوا فبادر زنكي الى الضرب أيدي موقظي الفتنة[23].

3-3 الامارات الصليبية: حمل استيلاء المسلمين على الرها الحزن الشديد والكآبة بين الصليبين جميعا، في الشرق إذ دق ناقوس الخطر لبقية الامارات الصليبية التي لم تستطع أن تقدم اية مساعدة ايجابية للرها وقت محنتها، وعند ما لم تجد ما تفعله حيال ذلك بدأت أنظارهم تتجه الى الغرب المسيحي لطلب المساعدة والنجدة[24] .

3-4 رد الفعل من جانب الغرب المسيحي والبابوية: أثار استنجاد مسيحي الشرق بالبابوية فكرة الشروع في اعداد حملة ثانية تتوجه لإنقاذ الأراضي المقدسة في الشرق وقد حث على تنفيذ تلك الفكرة ملك فرنسا لويس السابع، الذي أعلن يوم عيد الميلاد(539 هـ/1145م) عن رغبته في انقاذ الامارات المسيحية في الشرق وبعد أن أصبحت في حال يرثى له بعد سقوط الرها، وأرسل الملك بالفعل بعثة الى البابا ليوجين الثالث تحمل ذلك المعنى، فلاقت الفكرة قبولا كبير لديه، وعاد القراء الى فرنسا ومعهم خطاب من البابا يحث فيه الملك الفرنسي

وشعبه على تنفيذ ذلك، واعدا اياهم بالعديد من الخدمات الكنسية وفي نفس الوقت عين البابا مندوبا عنه Saint Bernardفي تلك الحملة هو القديس برنارد.[25]

4. ظهور نور الدين محمود ودوره في القضاء على فلول الصليبيين في الرها:

انقسمت مملكة زنكي بعد وفاته الى قسمين، الشرقي وعليه ابنه الأكبر سيف الدين غازي ومقره مدينة الموصل، والغربي وعليه ولده الآخر نور الدين محمود ومقره مدينة حلب، وقد أدى الوضع الجغرافي للقسم الغربي لأن يكون صاحبه وريثا للمشكلتين الكبيرتين اللتين صرف زنكي في معالجتهما معظم أيامه، وهما دمشق والقوات الصليبية بالإمارات اللاتينية المختلفة[26].

وقد حاول أمير الرها المنهزم جوسلين الثاني استرداد امارته المفقودة عام(542هـ/1147م)، وذلك بعد زنكي بمساعدة العناصر الأرمينية بداخلها وأمكنه عبور نهر الفرات في ذلك العام، واستولى عليها[27] ، وامتنعت عليه القلعة، وقد احتمت بها الحامية الاسلامية[28] .

وجد جوسلين الثاني نفسه أسيرا، هو ورجاله داخل المدينة ولما كانت قواته قليلة العدد ولا يمكنها اقتحام القلعة استنجد بأميري أنطاكية وطرابلس والوصية على عرش مملكة بين المقدس، وأرسلت الحامية من جهتها تطلب مساعدة نور الدين محمود صاحب حلب، وكان جيشه أنذاك في مهمة جهادية في أنطاكية، عد صاحب حلب محاولة جوسلين الثاني هذه تحديا له، ورأى ضرورة القضاء عليه قبل وصول النجدات الصليبية فخرج من حلب على رأس جيش كثيف بلغ تعداده عشرة ألاف فارس غير المشاة والطلائع وظهر أما أسوار المدينة[29].

وقع جوسلين الثاني بين شقي الرحى، الحامية من الداخل وجيش نور الدين محمود من الخارج فلم يقوى على ملاقاة هذه الجموع داخل الرها وخارجها وأدرك أن لا سبيل للنجاة إلا بالهرب، فتسلل أثناء الليل الى خارج المدينة واتخذ طريقه صوب الفرات، وطارده نور الدين محمود واقتفى أثره، واشتبك معه في اليوم الثاني وتغلب عليه، إلا أنه استطاع الفرار بصعوبة بالغة بعد اصابته، وكان بلدوين حاكم مرعش من بين القتلى، كما قتل باسيل أسقف اليعاقبة ووقع يوحنا أسقف الأرمن في الأسر[30].خرج الأرمن من الرها بعد أن أدركوا ما ينتظرهم إذا ظلوا فيها، وغالبيتهم لم يتمكن من النجاة بعد أن عاقبهم نور الدين وأحل بهم العقاب[31] ،خاصة بعد خيانتهم للمسلمين وتعاونهم مع أعدائهم وبذلك رجعت الرها نهائيا، وتأكد في هذه الفترة سيطرة المسلمين عليها.

وأيضا يعتبر استرداد الرها سابقا من طرف والده عماد الدين زنكي أهم ما قام به عماد الدين في حياته، وهو العمل الرئيسي الذي أضفى عليه وعلى دولته أهمية خاصة[32] في تاريخ الحروب الصليبية.

5. البابوية تنادي لحملة صليبية ثانية وتصدي السلطان نور الدين محمود لها:

يرجع سبب اثارة الحرب الصليبية الثانية الى سقوط الرها واسترجاعها من طرف المسلمين تحت قيادة عماد الدين زنكي، ومعاقبته لأهلها، فقد كان هذا هو السبب الأصلي للحرب الصليبية الثانية، نظرا لما لهذه المدينة من الحرمة والقداسة عند المسحيين ونظرا لهذه الوثبة الاسلامية الجديدة، جعلت من الامارات الصليبية تستعد

لخطر داهم[33] الذي يحمل في ثناياه الانذار بقرب النهاية ويعطي ارهاصا ببدء تداعي الكيان الصليبي في المنطقة[34].

وأدرك الغرب الاوربي أنه اذا لم يتسارع الى ترميم ذلك البناء فانه لن يلبث أن ينهار، وكانت نداءات الاستغاثة قد وصلت الى البابا اليوجين الثالث من فرنج الشرق، فقد بعثت ملكة بيت المقدس بوفد رفيع المستوى الى البابا لطلب النجدة بعد سقوط الرها، وارسل البابا رسلا الى امبراطور ألمانيا وملك فرنسا يحثهما على الاسراع لنجدة فرنج الشرق من خطر المسلمين، وفي الوقت نفسه كلف احد رجال الدين المشهورين في فرنسا اسمه برنارد بالدعوة للحرب ضد المسلمين في الشرق، فقد قام هذا الفتى بالدور الذي قام به البابا اربان الثاني عام(490هـ/1095م)، أثناء الدعوة للحملة الصليبية الأولى[35]. ولبى الامبراطور الالماني كونراد الثالث ولويس السابع ملك فرنسا، دعوة البابا وخرج كل بجيشه عبر اوروبا باتجاه القسطنطينية ،ومن هناك عبر مضيق البوسفور الى آسيا الصغرى[36] ، وانعدمت الوحدة بين القوات الصليبية عندما سار كل من الملكين مستقلا عن الاخر، فخرج كونراد الثالث أولا، ثم لحقه الجيش الفرنسي بقيادة لويس السابع، وتعرضت القوات الألمانية لخسائر فادحة في العتاد والعدة في طريقها لبلاد الشام، وذلك بسبب الاشتباكات بينهم وبين القوات السلجوقية، وانهزمت أمامها شر هزيمة، أما الجيش الفرنسي توجه نحو ايطاليا ومنها عبر البحر الى السويدية، فأنطاكية فبلغها في شهر ذي الحجة عام(542هـ/مارس عام1148م)[37].

استقبل ريموند بواتيه، صاحب أنطاكية الملك لويس السابع بالحفاوة والترحاب[38]، أملا في تسخير الحملة لصالحه، بحكم روابط الصلة العائلية مع الملك الفرنسي كان ريموند خال الملكة الفرنسية إليانور زوجة لويس السابع[39]إذ كان مركزه في انطاكية بالغ الخطورة، بعد أن وطد نور الدين محمود أنذاك ملكه على امتداد الطرف النصراني، الممتد من الرها الى حماة، ورأى أن تقوم الحملة بمهاجمة حلب والقضاء عليه بوصفه خليفة القوة التي فتحت الرها والمهددة لأوضاع الصليبين في انطاكية[40]، لكن الملك لويس السابع تردد في ذلك قائلا إن قسمه الصليبي يجبره أن يذهب الى القدس أولا ،قبل أن يبدأ في أي حملة، غير أن هذا العذر كان مجرد قناع يخفي وراءه عجزه عن اتخاذ القرار[41].وأيضا الكونت جوسلين أمير الرها المتواجد في تل باشر، كان يعلق أمالا كبيرة في استعادة الرها، وقال بأن سقوطها هو من حرك الحملة الصليبية عليها[42] .

أما ريموند الثاني كونت تولوز أمير طرابلس، فقد أراد أن يستغل الرابطة التي تربطه بالملك الفرنسي عن طريق والدته الفرنسية، لتسخير الحملة في استرداد البلاد التي فتحها المسلمين في عهد عماد الدين زنكي (534هـ/1140م)[43] ،وهكذا وجد لويس السابع نفسه وسط مجموعة من الأمراء المنشقين على أنفسهم.

وهكذا كانت امارات الشمال في أشد الحاجة لمساعدة لويس السابع، بعد أن هدد نور الدين محمود وجودها وانتزع كثير من أملاكها، وأمل كل أمير في الشمال في الافادة من هذه الحملة الصليبية، لتحقيق أغراضه وتأمين وجوده[44] ،

وفي جوان (1148م/543 هـ صفر)، عقد الصليبيون في عكا مجلس كبير، لم يحضره ممثلون عن الامارات الشمالية، بحث فيه المؤتمرون على حد قول وليام الصوري: "أنسب وقت وأحسن مكان ليزيدوا بمشيئة الرب من رقعة المملكة اتساعا، ويضيفوا مجدا الى مجدها المسيحي"[45].

وحضر هذا المجلس الصليبي كل من الملكة ميلسيند وصية بلدوين الثالث، وبلدوين الثالث وأيضا حضره كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا، وكبار الشخصيات الدينية والعلمانية[46]،

كان على الصليبيين الغربيين أن يختاروا بين اتجاهين سياسيين، يمثلان وجهتي نظر متناقضتين، مثل وجهة النظر الأولى حكام الامارات الصليبية الشمالية أنطاكية والرها وطرابلس وقد ذكرنا أسبابهم، في حين مثل وجهة النظر الثانية حكام بيت المقدس، وتقضي بمهاجمة دمشق، وبعد الكثير من المداولات تقرر اعتماد وجهة النظر هذه.[47]

والواقع أن هذا القرار اتسم بالحماقة الى حد بعيد بل خطأ شنيع، فعلى الرغم من أن دمشق تعد جائزة سياسية قيمة ويؤدي تملك الصليبيين لها الى قطع الصلة نهائيا بين المسلمين في بلاد الشام والجزيرة والمسلمين في مصر، غير أن فقدانها يعني فقدان الأتابكية الوحيدة التي انفردت على سائر الممالك الاسلامية بالحرص على استمرار الصداقة مع الصليبين، علاوة على ذلك فإن أتابكية دمشق كانت تضارع أكثر الصليبين تطرفا، في عداوة نور الدين محمود، لذلك كانت مصالحهم تقضي بالمحافظة على الصداقة مع دمشق حتى يتم القضاء عليه، ولم يدرك الصليبيون أن مهاجمتها سوف تدفع سكانها الى الارتماء الى أحضانه[48].

ولقد تناس المجتمعون أن الحملة الصليبية الثانية إنما جاءت أصلا لاستعادة الرها، بل أنهم لا شك أدركوا أن ما تتعرض له الامارات الشمالية من الخطر والتهديد يحتاج من الاهتمام ما يزيد عن السعي لتحقيق أطماع مملكة بيت المقدس التوسعية، على الرغم مما كانت تتمتع به من هدوء وسلام في ذلك الوقت، وفي (24جوان 543/1148هـ) ربيع الأول قرر الصليبيون وقادة المملكة مهاجمة دمشق[49].

6. السلطان نور الدين محمود يدافع عن دمشق ويهزم الصليبين:

زحفت الجيوش الصليبية تحت زعامة لويس السابع وكونراد الثالث وبلدوين الثالث وبلغ عدد الصليبين نحو خمسين ألف مقاتل، واجتمع هذا الجيش الضخم أولا في طبرية ثم تحرك الى بانياس، ثم عسكر على حافة الحدائق التي تحيط بدمشق من جهتها الغربية، على حين أرسل معين الدين أنر سيتنجد بالقوى الاسلامية في حلب والموصل والمدن الاخرى، فبدأت تتدفق عليه النجدات[50].

لبى نور الدين محمود واخوه سيف الدين غازي نداء الاستغاثة فخرجا من الموصل وحلب على وجه السرعة، وعبر الفرات على رأس جيش كبير[51].

وصمد الدماشقة صمود الأبطال وهذا ما يشير إليه وليام الصوري[52]، حقيقة شعور نور الدين محمود وأخاه سيف الدين الغازي بالمسؤولية تجاه الدفاع عن أراضي المسلمين، اتضح جليا في هذه الحملة الصليبية على دمشق، وذلك رغم أن أتابكية دمشق كانت تعتبر منطقة اسلامية عدوة للزنكيين وحليفة للصليبيين وخاصة ملكة

بيت المقدس، خاصة وأن عماد الدين زنكي هاجم دمشق عديد المرات، وهذا ما ولد عدم الشعور بالثقة والاطمئنان لدى حكامها وسكانها تجاه ولدي زنكي فيما بعد، ومع ذلك فان نور الدين محمود وفي اطار سياسته لتوحيد الجبهة الاسلامية، وهي الانطلاقة نحو الجهاد لطرد الصليبيين لبى النداء الواجب القيام به، وظهر به معدنه الأصيل، وخاصة أنه كان في علاقة مصاهرة مع نائب أمير دمشق معين الدين أنر، بحيث تزوج الملك العادل نور الدين محمود ابنته عصمة الدين خاتون، وكان ذلك في شهر شوال سنة(541هـ/ 1146م)،رغم أن هذه العلاقات الأسرية لم تتمكن من تفكيك التحالف بين دمشق وبيت المقدس[53] .

وظن أهل دمشق أنهم خسروا كل شيء، خاصة مع عدد الصليبين الهائل بقيادة ملوك وقادة من الغرب اللاتيني، فشرعوا في إقامة المتاريس في الشوارع استعداد للقتال وناوشوا الصليبيين المحتمين بالأشجار، حتى اضطروهم الى تغيير مواقعهم الى الجهة الشرقية من المدينة حيث لا يتوفر مثل هذا الغطاء[54] . وكان نور الدين محمود خلال هذه الفترة قد نهب وفتح عديد المدن التي كانت تحت سيطرة الصليبيين، كمدينة أرتاح وما بولة وكفرلاتا، وكان الفرنج بعد مقتل والده زنكي قد طمعوا وظنوا أنهم سيزيد نفوذهم وامتدادهم في الشرق لكن لما رأوه من نور الدين هذا الحد، في اول أمره وعمره في ذلك الوقت تسعة وعشرون سنة، علموا أن ما املوه بعيد وخاب ظنهم وأملهم[55].

كان صاحب دمشق مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين، ضعيف الشخصية وكان حاكمها الحقيقي والفعلي هو نائبه معين الدين انر الذي كان عاقلا وذكيا وعادلا وحسن السيرة وهو من نظم الجيش لحماية المدينة وهو من أرسل يطلب المساعدة من نور الدين محمود وسيف الدين غازي[56].

نزلا الاخوان حمص، وأرسلا الى معين الدين يخبراه بقدومهما واستعدادهما وقوة عسكرهم جيش الزنكيين، مستعدين للدفاع عن دمشق والمسلمين، ووجد نور الدين الفرصة لزيادة تدخله في شؤون دمشق على نحو يضمن له في النهاية احكام قبضته عليها[57]،وكان لابد للأميرين الزنكيين من أن يفكرا في الثمن [58]، واشترطا عليه "فأريد أن يكون نوابي بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج، فإن انهزمت دخلت أنا وعسكري البلد واحتمينا به، وإن ظفرنا فالبلد لكم لا انازعكم فيه"[59].

وكان معين الدين انر يعلم تماما أنه إذا دخل الزنكيون دمشق فلن يخرجوا منها، فحاول انر تأخير رده عليهم، وارسل في نفس الوقت إلى الصليبيين يخوفهم من تقدم الزنكيين وتملكهم دمشق، لأنه قرر أن يسلم البلد اليهم إذا لم يسحبوا جيوشهم، ويحذرهم أيضا انه إذا سيطر الزنكيون على دمشق فلن يكون للفرنج بقاء في بلاد الشام[60]، وفي نفس الوقت عرض على الصليبين عرض مغري بحيث أنه سوف يعطيهم حصن بانياس، مقابل الجلاء عن دمشق، وهذا ما يدل على قوة نور الدين محمود وأخاه سيف الدين غازي وجيشهما، وخوف انر منهما لدرجة يتنازل على منطقة حصن مهم، مقابل جلاء الصليبين عن دمشق[61]، قبل وصول القوات الزنكية.

ولم يلبث ان أخذ الصليبيون يعملون حسابا لاقتراب القوات الاسلامية المتحدة من جهة الشمال، فأدركوا اخيرا أن حملتهم لم تتجه وجهتها الصحيحة، وأن حلب لا دمشق أولى بجهود الصليبيين، وعندما وجد الصليبيون أنفسهم مهددين بين لحظة واخرى بانقضاض قوات الزنكيين عليهم وساء وضعهم في شرق دمشق، بسبب نقص الأقوات والماء والحرارة المرتفعة، قرر لويس السابع وكونراد الثالث في نهاية الأمر الانسحاب ورفع الحصار عن دمشق، ولم يمضي على وصولهم اليها سواء بضعة ايام[62] . وبذلك انتهت الحملة الصليبية الثانية، التي تولت توجيهها سياسات خرقاء الى الاخفاق التام، وما ان رحل الصليبيون حتى قام السلطان نور الدين محمود، بالإغارة على إنب، وقتل بها ريمون دي بواتيه في (29 يونيو1149م/صفر544هـ). كما اجتث من امارة انطاكية كل ما اتصل بها من أراضي ما وراء نهر العاصي، بما في ذلك بلدتي حارم وأفاميه، أما كونتية الرها فقد ضاعت نهائيا، وأما امارة أنطاكية فقد اصيبت بشرخ خطير في منتصفها، وكان ذلك كله بسبب الخلاف والشجار بين القادة والأمراء المحليين الصليبين، والوافدين الجدد[63]

7. دورها في ابراز مكانة السلطان نور الدين محمود وتقوية نفوذه في المنطقة:

فشت الحملة الصليبية الثانية في تحقيق هدفها الرئيسي بإسقاط دمشق، ومع ذلك نجحت في تدعيم نفوذ نور الدين محمود بصورة أكبر، فعلى الرغم من خشية الدماشقة من تطلعاته السياسية، إلا انهم صاروا على علاقة ودية معه أفضل من قبل تلك الاحداث، وتدعم وضعه السياسي في شمال الشام بصورة أقوى، فقد اعترف الدماشقة ضمنيا بقوة نفوذه الحربي والسياسي، وطلبوا منه العون ضد مملكة بيت المقدس حليفة الأمس[64] ، وأيضا أظهرت هذه الحملة الصليبية بعد فشلها أن المسلمين كانوا يخشون أوهاما كاذبة، وأن الصليبيين أضعف من ان يقوموا بجهد جدي ضد المسلمين[65]، لذلك لا عجب إذا قرر بعض المؤرخين أن فشل الحملة الصليبية الثانية تعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية وفي تاريخ الصليبيين في الشرق[66] .

ولقد تمكن نور الدين من ضم دمشق في صفر عام(549 هجري/ أفريل1154م)، ويعد ضم دمشق من اهم انجازات السياسة الخارجية له، وبذلك تحقق حلم طالما راود الزنكيين، وقد عده البعض أعظم انجازاته على الاطلاق، وأنه نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية حيث غدت بلاد الشام والجزيرة تحت سيطرته، وصار الصليبيون بذلك يواجهون عدوا خطيرا[67] ، وأصبح قواتهم في مواجهة قوة اسلامية موحدة، وصار بإمكان السلطان نور الدين محمود أن يوجه ضرباته لا عدائه في الشمال صوب انطاكية، وفي الجنوب صوب منطقة الجليل الاعلى والحدود الشمالية للمملكة اللاتينية ،كذلك أدى ضم دمشق الى فتح الطريق نحو القاهرة، التي غدت محطة أطماع متبادلة من جانب نور الدين محمود والصليبيين على حد السواء[68] .

وزاد نجم نور الدين في الظهور والصعود، وأصبح قائدا للمسلمين والمدافع ورمزهم الموحد لهم وحاميهم من اعتداءات الفرنج.

8. خاتمة:

تمكن السلطان نور الدين محمود من تحقيق نصر باهر على الصلبيين بفضل قوته واصراره على توحيد الامة الاسلامية واسترجاع اراضيها، ويعتبر فشل الحملة الصليبية الثانية على العالم الاسلامي بداية النهاية للتواجد الصليبي في المنطقة، وكان للزنكيين دور كبير في استرجاع اولى الامارات الصليبية وهي الرها، ووقف ثاني حملاتهم الصليبية وهذا ما فتح المجال امام بداية ظهور جبهة اسلامية موحدة من الجزيرة الى مصر، تحاول استرجاع بيت المقدس بدأها الزنكيون بزعامة السلطان نور الدين محمود، وأكملها الايوبيون بقيادة صلاح الدين.

ويوضح لنا حقيقة دور السلطان نور الدين محمود في توحيد الجبهة الاسلامية، خاصة بعد وفاة والده، مع أخيه سيف الدين التي كانت سببا في خوف الصليبيين من الزنكيين وعدم توجيه الحملة له مع انها قدمت من اجله، وتوجيهها نحو حليفتهم، وكان لذلك مغزى كبير نحو توحيد القوات الاسلامية.

يمكن اعتبار السلطان نور الدين محمود هو اول قائد اسلامي أفشل حملة صليبية بقيادة اباطرة وملوك من اوروبا اتجاه العالم الاسلامي، نظرا لما حققته الحملة الاولى من نجاحات للصليبيين.

وتبدو لنا القواسم المشتركة بين الحملات القديمة والحروب الحديثة واضحة كل الوضوح، وهدفها استنزاف الوطن العربي والشعوب الاسلامية، وتمزيقها وتهديد امنها واستباحتها.

9. التوثيق:

[1]الرويضي محمود فالح محمد، امارة الرها الصليبية، دائرة المطبوعات والنشر، عمان، 2002، ص4.

[2]الجنزوري علية عبد السميع، امارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2001، ص40.

[3]الجنزوري، المرجع السابق، ص ص72،60.

[4]نفسه، ص71.

[5]نفسه، ص 72.

[6]عاشور سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية،2، المكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، ط1 ،2010، ج1، ص424.

[7]الصلابي علي محمد، الدولة الزنكية، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2007، ص 136.

[8]ابن الاثير عز الدين الجزري، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة، 1963، ص66-67.

[9]الصلابي، المرجع السابق، ص 115.

[10]طقوش محمد سهيل، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط2، 2010، ص129.

[11]طقوش، تاريخ الزنكيين، ص 132.

[12]نفسه، ص139.

[13]الصلابي، المرجع السابق، ص133.

[14]ابن القلانسي ابي يعلى حمزة، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: امدروز، مطبعة الإباء اليسوعيين، بيروت،1908، ص 281.

[15]طقوش، المرجع السابق، ص150.

[16]رنسيمان ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية،3، ترجمة: عماد الدين خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1998، ج2، ص380-381.؛ الصوري وليام، الحروب الصليبية،3، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994، ج3، ص239.

[17]طقوش، تاريخ الزنكيين، ص 153.

[18]حبشي حسن، نور الدين والصليبيون، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948، ص 40.

[19] أبو شامة شهاب الدين، الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص 172.

[20]طقوش، المرجع السابق، ص 154.

[21]رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص275.

[22]حبشي، ص 40.

[23]عاشور، المرجع السابق، ج1، ص483.

[24]الجنزوري، المرجع السابق، ص314-315.

[25]نفسه، ص316.

[26]حبشي، ص41-42.

[27]مؤنس عوض، في الصراع الإسلامي – الصليبي، عين للدراسات، القاهرة، 1998، ص165.

[28]ابن الأثير عزالدين، الكامل في التاريخ، اجزاء10، تحقيق: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط9، 2002، ج9، 342؛ الصوري، المصدر السابق، ج3، ص260.

[29]عاشور، المرجع السابق، ص 486.

[30]الصوري، المصدر السابق، ج3، ص363؛ طقوش، تاريخ الحروب الصليبية، دار النفائس، بيروت، ط1، 2011، ص254.

[31]طقوش، الحروب الصليبية، ص256.

[32]الصلابي، نور الدين محمود زنكي، مؤسسة اقرا، القاهرة، ط1، 2007، ص234.

[33]المطوي محمد العروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982، ص69.

[34]الشيخ محمد مرسي، عصر الحروب الصليبية في الشرق، مطبعة السعادة، القاهرة، 2004، ص256.

[35]طقوش، الحروب الصليبية، ص171-172.

[36]الصلابي، نور الدين محمود، ص234.

[37]طقوش، الحروب الصليبية، ص172.

[38]رنسيمان، المرجع السابق، ج2، 323.

[39]طقوش، الحروب الصليبية، ص172.

[40]رنسيمان، ج2، 324.

[41]نفسه، ج2، ص324.

[42]نفسه، ج2، ص324.

[43]طقوش، الحروب الصليبية، ص173.

[44]الشيخ، المرجع السابق، ص267.

[45]الصوري، المصدر السابق، ج3، 307.

[46]طقوش، الحروب الصليبية، ص173.

[47]نفسه، 173.

[48]رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص326.

[49]الشيخ، المرجع السابق، ص271.

[50]رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص327.

[51]ابن اثير، الكامل، ج9، ص353.

[52]الصوري، المصدر السابق، ج3، ص313.

[53]فرحان حسن، اتابكية دمشق دورها في الجهاد ضد فرنجة الشرق، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2002، ص165.

[54]طقوش، المرجع السابق، ص324.

[55]ابن اثير، الكامل، ج9، ص348.

[56]ابن الاثير، الكامل، ج9، ص353.

[57]عوض، ص145.

[58]عاشور، ج1، ص502.

[59]ابن اثير، الكامل، ج9، ص353.

[60]الشيخ، المرجع السابق، 274.

[61]عاشور، ج1، ص502.

[62]عاشور، ج1، 503.

[63]غروسيه رينيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: احمد إيبش، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2014، ص59.

[64]عوض، المرجع السابق، ص147.

[65]عاشور، ج1، ص501.

[66]نفسه، ص501.

[67]الصلابي، نور الدين زنكي، ص465.

[68]عاشور، ج1، 526.

10. قائمة المصادر والمراجع:

1- الرويضي محمود فالح محمد، امارة الرها الصليبية، دائرة المطبوعات والنشر، عمان، 2002.

2- الجنزوري علية عبد السميع، امارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،2001.

3- عاشور سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية،2، المكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، ط1 ،2010، ج.1

4- طقوش محمد سهيل، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط2، 2010.

5- رنسيمان ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية،3، ترجمة: عماد الدين خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1998، ج2.

6- أبو شامة شهاب الدين، الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

7- مؤنس عوض، في الصراع الإسلامي – الصليبي، عين للدراسات، القاهرة، 1998.

8- ابن الأثير عزالدين، الكامل في التاريخ، اجزاء10، تحقيق: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط9، 2002، ج9.

9- الصلابي، نور الدين محمود زنكي، مؤسسة اقرا، القاهرة، ط1، 2007.
10- الشيخ محمد مرسي، عصر الحروب الصليبية في الشرق، مطبعة السعادة، القاهرة، 2004،
11- فرحان حسن، اتابكية دمشق دورها في الجهاد ضد فرنجة الشرق، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2002،
12- غروسيه رينيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: احمد إيبش، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2014،
13- الصوري وليام، الحروب الصليبية،3، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994، ج3.
14- حبشي حسن، نور الدين والصليبيون، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948.
15- طقوش، تاريخ الحروب الصليبية، دار النفائس، بيروت، ط1، 2011.
16- المطوي محمد العروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1982.
17- ابن الاثير عز الدين الجزري، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة، 1963.
18- الصلابي علي محمد، الدولة الزنكية، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2007.
19- ابن القلانسي ابي يعلى حمزة، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: امادروز، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت،1908.